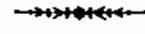


رسائل تلميلية :

الجنيد

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ



في حاضرة الخلافة العباسية مدينة العلم والنور وبين مجالس الزهد والتقوى وسرائع اللهو والمجون ، ولد العالم الأديب المحدث الفقيه الصوفي المتفك أبو القاسم^(١) الجنيد بن محمد الخزاز القواريري ، ودرج في بيت أبيه لا يرى فيه من مظاهر النعمة والثراء شيئاً مذكوراً ، ولا تسمع أذناه سوى ارتطام القوارير التي كان أبوه يبيعهما . ولما بلغ مبلغ الصبيان صار يذهب إلى دكان أبيه ، فكانت كثيراً ما تقع عيناه على موكب من مواكب الخليفة يسير في شوارع بغداد خارجاً لصيد أو ذاهباً إلى مسجد لأداء الصلاة تحف به مظاهر الأبهة والملك وتحيط به حاشية من وزراء وقراء وجنود وسحاب ، فكانت تستهويه هذه المواكب ، وتسحره هذه المظاهر ، ويتمنى - شأن كل من في مثل سنه - أن يكون كأحد هؤلاء الذين يحيطون بالخليفة ويحفون به . أو يمر على حانة من حانات القصف واللهو تختلط فيها رنة الكأس بأصوات الغنيات ، وتعالى فيها سيجات الاستحسان من قوم سلبتهم بنت الحان عقولهم ، فيقف ينصت لما يقولون ويسمع ما به يترنمون ، فيود لو جلس بينهم وشاركهم لهوهم وفرحهم ، فإذا آب إلى بيت أبيه في أحد أزقة بغداد هاله الفرق البعيد وأخرجته سمرارة الحقيقة التي تتجلى له والتي هو رازح تحت كاسكها ، من تصوراته البديمة وتخيلاته المرعبة التي كان سابحاً في ملكوتها ، إلى واقع حياته وحياته من يحيطون به .

والا صار فتي الحقه والده بمجانوت خزاز ليعلم صنعة تسكون له غناء في حياته ورقاية له من الفاقة ، وكان كثيراً ما يسمع عن أسماء بعض الفقهاء والمعلماء ، وأقوالهم ومجالسهم وما حياهم الله به من نور وعرفان ، فتأقت نفسه إلى مشاهدة مجالسهم وسماع

أقوالهم . وذات مساء ذهب إلى إحدى الحلقات التي يؤمها كثير من طلاب العلم ، وهناك جلس في ركن من أركانها قائماً خاشعاً في وقار وتهيب وخشية وخوف ، يسمع ما يقال ولا يذبس ببنت شفة ، وسحرة القول وأعجبه الحديث ، فصار يتردد على هذا المجلس حتى تفتحت بصيرته وانشرح قلبه لنور ربه ، وبدأ يفهم ما يقال ويتأمل ما يسمع .

ثم سمع بإبراهيم بن خالد السكبي صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فورد عليه وأنصت لما يقول تجذبه قوله واستأثر به حديثه فلزم مجلسه . واسترعت مواظبة الجنيد وحضوره مبكراً نظر السكبي فقربه إليه وأدناه من مجلسه ، وأعظم فيه مظاهر الورع والتقى على صغر سنه ، ورأى علائم النجابة يادية عليه ، فآخذة تلميذاً له يرعاه ويحدوه بتأنيته . ولم يقتصر الجنيد على الفقه بل أخذ من كل علم بطرف ، فكان في الأخلاق تلميذاً معروفاً السرخي ، وفي التوحيد تلميذاً الحارث المحامدي .

وصار الجنيد قبلة الأنظار وهو في سن العشرين . وفي أحد الأيام قال له خاله السري السقطلي وكان من أساتذته ، تكلم على الناس وعظهم حتى تفيد وتستفيد ، واتمظ نفسك قبل أن تعظ الناس ، فامتنع عن ذلك لأنه كان يرى نفسه ليس أهلاً لذلك ، فرأى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت ليلة الجمعة ، فقال له النبي عليه السلام : تكلم على الناس . قال فأتيت من نوى وأتيت باب السري قبل أن يذبلج الصبح ، فلما دقت الباب قال لي : لم تصدقنا حتى قيل لك^(١) . قال : فقدمت في هذا اليوم للناس بالجامع . ثم صار له أتباع وصريدون وأصبح أوحد أهل عصره . فقد كان يفتي في المسألة الواحدة وجوها لم تخطر على بال العلماء . سأله أحد الفقهاء عن مسألة فأجاب فيها بأجوبة لم تخطر له ، فقال يا أبا القاسم لم أكن أعرف فيها سوى ثلاثة أجوبة مما ذكرت فأعدها على ، فأعدها بجوابات أخرى ، فقال والله ما سمعت هذا قبل اليوم ، فأعده على ، فأعدها بجوابات أخرى غير ذلك ، فقال لم أسمع بمثل هذا فأمله على حتى أكتبه . فقال الجنيد : لئن كنت أجريه فأنا أملكه ، أي أن الله هو الذي يجري ذلك على قلبي وينطق به لساني؟ وليس هذا مستفاداً من كتب ولا من تعلم؛ وإنما هذا من

(١) لم أذكر على تاريخ مولده بالضبط فيما تحت يدي من مراجع .

(١) وفيات الأعيان ٣٠٠ .

من الجنون الفجائي عن الله به على من اصطفاه فيصبح بواسطته في حال يصدر فيها عن القول والفعل دون أن يكون مسئولاً عما يقول أو يفعل . ومن يتجههم الله المعرفة ، ويتجل عليهم بهذه المنزلة يستول عليهم بمنف جليل . وفي هذا يقول الجنيد عن هؤلاء الذين خصهم الله بقربه واصطفاهم لحضرتهم « هؤلاء هم الذين اعترل الله بهم » .

والمعرفة عنده معرفتان : معرفة حق ، وهي إثبات وحدانية الله تعالى على ما أبرز من الصفات وما أظهر من آثار قدرته في الأنفس وفي الآفاق . وهذه المعرفة هي معرفة المؤمنين عامة . ومعرفة حقيقة : وهي مشاهدة السر من عظمة الله وتعميم حقه وإجلال قدره وتزيره ربوبيته عن الإحاطة ، لأن الصمد لا تدرك حقائق نموته وصفاته ؛ فالخلق سبحانه وتعالى يشاهد من عظمتهم . وفي هذا يقول : « المعرفة تردد السريين تعظيم الحق عن الإحاطة وإجلاله عن الدرك » . أما من اكتفى بمظاهر الحياة وما يشاهد في قلبه من صور ، واعتقد أنه بهذا وصل إلى المعرفة فقد خاثة التوفيق وجانبه المصواب والجنيد يقول : « المعرفة أن تعلم ما تصور في قلبك فالخلق بخلافه » . ولكنه وجود يتردد في الكون ويحكم بديره ، لا تنهياً للمباراة عنه ، ولا تؤدي الكلمات المقصود منه . فالإنسان مسبوق ، والمسبوق غير محبط بالسابق ، فمخاطب الحال قائم بوجود عياناً وشخصاً وصفة ونمناً .

والمعرفة تجعل العارف الذي تعلق بحقيقة الخالق لا يشهد حاله ، بل يشهد سابق علم الحق فيه وأب نهائته صائراً إليه ومصيره إلى ما سبق له ، ومن لم يتمم الله عليه بشهود ما سبق له من الله تحير ، لأنه لا يدري ما علم الحق فيه ولا ما جرى القلم به ، ومن عرف ما سبق له من القسمة لا يتقدم ولا يتأخر وتعلم عن الطلب ، فقد عترف أن الله متولى أمره . ومن عرف أن الله متولى أمره تدلل له في أحكامه وأفضيته وسار في طريقه مستقبلاً متذلاً . وفي هذا يقول « المعرفة شهود الخاطر بمواقب المصير ، وأن لا يتصرف العارف بسر ولا تقصير » . والعارف هو من ليس لكل حال لبوسها فيكون في كل حال بما هو أول وما يناسبه فلا يرى بحال واحدة ، لأن أمره ليس بيده ومصرفه غيره . ولما سئل عن صفة العارف قال : « لون الماء لون الأناء »

من فضل ربي يلهمنيه ويجريه على لساني . وسمعه بعض المعتزلة فقال : رأيت في بغداد شيخاً يقال له الجنيد ما رأيت عيني مثله . كان الكتابة يحضرونه لألفاظه ، والفلاسة لدقة كلامه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لعمانيه ، وكلامه ناء عن فهمهم .

وبينما هو يسير في الليل في درب من دروب بغداد سمع غناء في دار فناد به الحنين إلى عهد الطافولة فأنصت ، فإذا جارية تقول : إذا قلت أهدى المهجر لي حلال البسلي

تقولين : لولا المهجر لم يطرب الحب

وإن قلت هذا القلب أحرقة الجوى

تقولين : نيران الهوى شرف القلب

وإن قلت ما أذنت قات مجيبة حياتك ذنب لا يقاس به ذنب فصاح وخر منمشياً عليه ولما أفاق ورجع إلى بيته أخذ يطيل الفكر فيما سمع ، وترن في أذنيه قول الجارية (حياتك ذنب لا يقاس به ذنب) فبدأ يتخلف عن مجلسه ويطيل وحدته ويتأمل صنائع الإله وما أبدع في الكون وبذلك انتقل إلى مرعلة التصوف والميثاق الذي ورد في كتاب الله جل شأنه والذي يمتضاء انقسمت الأرواح أن تؤمن به قبل أن تحل في أبدانها وقبل أن يخلق الله هذه الأجسام ، هو مذهب الجنيد الذي اعتنقه ونادى به . وصاحب هذا المذهب يؤمن بوجود حقيقة الإنسان في الوقت الذي تمهدت فيه الأرواح بالإيمان لخالقها ، وأن البدن باطل لا وزن له ولا يساوى أية قيمة ؛ وأما الحقيقة الإنسانية فهي تنحصر في الجوهر الرزقاني الذي لا تشوبه شوائب المادية ، وفي هذا اليوم الذي تمهدت فيه الأرواح لخالقها بالإيمان تقرر مصير الإنسانية وتحدد نهائياً . ومن هذا اليوم اختار الله السعداء من خلقه فاصطفاهم لحضرتهم فانكشفت لهم الألوهية في ذلك الوجود النقي الصافي الذي كان محتويهم قبل عالم الأشباح ، ثم بعد أن صاروا في عالم الأشباح لا زال الله يجذبهم إلى العودة إليه من ثنايا هذه الحياة . ولهذا العودة درجات كثيرة مختلفة ومتعددة ، ولكن أعلى هذه الدرجات وأولها المعرفة ، وأول مبادئها التوحيد ، ثم تعديد الوحدانية الإلهية ، ولا يكون هذا التعديد حقيقياً إلا بالتنزيه وهو جعود الكيف والحيث والآين ، ولا يحظى بهذه المنزلة إلا من شاء الله له ذلك عن طريق السكر النفسكي وهو نوع

وكثيراً ما كان يحكي في هذا المقام ما حدث لأبي بن كعب . قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب (إن الله أمرني أن أقرأ عليك) فقال أبي : أو ذكرت هناك يا رسول الله ! قال نعم : فسكى أبي ولم ير حالاً يقابله بها ، ولا شكراً يوازي نعمه ، ولا ذكراً يقوم بما يستحقه المولى جل شأنه ، فاقطع فسكى فقال له النبي عليه السلام (عرفت فإزِم) .

وذكر الله هو سبيل الوصول إلى الحضرة الربانية ، والهيام به هو تصریح المرور إلى مجلس الأنس الأسمى ، ولا يكون حقيقة من القلب إلا إذا استروح الذاكر حب الله وعاقب الحق وتخل من كأس الحبيب وسكر بخمره . وهوقوت القلوب الذي يحيا به ، وزاد الأرواح التي تنزود به ، وأنس النفوس الذي يذهب عنها الوحشة ويزيل همها وكرهها ، والماء الذي يطغى ظلمة الغؤاد ويخفف من حدة اشتماله ، وهو الدواء الشافي من العلل والأسقام ، والبلسم المظهر لجراحات القلوب ، وهو جبل الوصل بين الذاكر والمذكور ، وسبيل القرب بين المحب والمحبوب ، وكلما ازداد الذاكر في ذكر محبوبه استغراقاً وهياماً ، ازداد الحبيب المذكور إلى ذاكره تقرباً وإلى لقيائه اشتياقاً . والذاكر عنده نوعان : ذكر اللسان وهو أيسر النوعين وأقلها مشقة وأخفها عناء ، وهو ملك للجميع وفي هذا يقول :

ذكرتك لا أنى نسبتك لحمة . وأيسر ما في الذكر ذكر لسانى
فإذا وافق القلب في الذكر اللسان ، نسي الذاكر في جنب الله كل شيء . وهان عليه كل شيء وحقر في نظره متاع الدنيا وزينتها ، وطرح مباحها وراء ظهرها ، وتملق بذكر محبوبه وهام به وغرق في بحر ملكوته القدسي . ومن كانت هذه حاله حفظ الله عليه كل شيء وعوضه بالذة ذكره عن كل شيء ، ومن وصل إلى هذه الدرجة فهو الذي من الله عليه بعممة الوصل والتعرف ؛ لأن من بلغ هذا المقام فقد عرف الله حق المعرفة ؛ فحق الأثر الإلهي : (إن عبدي كل عبدي يذكرني وهو ملاق قرنه^(١)) وفي

هذا يقول الجنيد « من ذكر الله عن غير مشاهدة فهو مفتري » والذاكر بالقلب هو أصل المحبة وعنوان التقرب لأنه يفزو قلب الذاكر وفي هذا يقول : « المحبة ميل القلوب » فالذاكر إذا أحب من يذكره مال إليه قلبه وانجذب إلى حضرته وفتنى في ذاته ، فيكون حبه من غير تكلف ، وهيامه عن صدق وإخلاص . وما دام الذاكر قد مال قلبه إلى من يذكره واتصلت به محبته فإنه يرى اللذة والسعادة في الخضوع له والتذلل في حضرته وإطالة الوقوف ببابه طلباً للمتول بين يديه ، والطاعة فيما يأمره به من أعمال ، ويعتمد عما ينهيه عنه ، ويرضى كل الرضا بحكمه فلا تنور نفسه ولا يضجر قلبه إذا ثزل به مكرهه أو حقت به نازلة ، يفعل كل ذلك ليحظى بالقرب وينال الرضا من المحبوب ، فإن حظي بمراده وبلغ مأموله فقد طابت له الحياة وصفا عيشه ؛ لأن المحب يتلذذ بكل ما يرد عليه من المحبوب من خير أو شر . وفي هذا يقول : « المحبة لذة والحق لا يتلذذ به لأن مواضع الحقيقة دهش واستبقاء وحيرة » .

وإذا ملك الحب شفاف القلوب ، وتكشفت الحلال بين الحب والمحبوب ، وأصبحت المحبة تعظيماً يحل الأمرار ، وقرباً يحبي موات القلوب ، فإذا سمع المحب ذكر محبوبه اضطربت منسه الجوارح طر بالذاكر محبوبه فيصيح في حال من الوجد والهيام ، والمحب إذا كان ضيقاً إيمانه ضعف وجده ، وضعف الوجد ينتج حالاً من التواجد وهو ظهور علامات الهيام على المحب . وأما القوى الإيمان الراسخ القدم الصافي القلب الصادق الحب ، فيكون وجده قوياً ووجهه خالصاً ، ومن قوى وجده تمكن فسكن فقره في حال من السكر لا يفتق منها أبداً ، وهذه الحال هي حال العارفين . ولا شك أنها خير من الحال الأولى لأن كتمان الحب دليل على قدرة المحب وصبره على تحمل ما يلقي في سبيل حبه . وفي هذا يقول الجنيد :

الوجد يطرب من في الوجد راحتته والوجد عند حضور الحق مفقود
قد كانت بطربني وجدى فأشتمنى

عن رؤية الوجد من في الوجد موجود

والجنيد صوفي متفكك وهو زيادة عن ذلك عالم فقيه محدث

(١) قرن الإنسان من مائه سناً ، تقول هو على قرني أي على مثل سني ، والقرين الصاحب (قال فائل منهم إنى كان لي قرين) أي صاحب ، والمراد من الحديث القدسي ، أن العارف يذكره وهو مستحضر عظمته مستشعر جلالته وقدرته .